

التمرة

وينى مانديلا

نيلسون مانديلا هو المناضل الإفريقي المعروف ضد التفرقة العنصرية فى جنوب إفريقيا..
والصفحات التالية ليست عنه، وإنما عن زوجته وينى..

لقد قيل له، بعد أن ظل أقدم سجين فى العالم - ٢٧ سنة - : إن زوجته كانت خارج السجن،
ترتكب أبشع الجرائم، وتدمن أبشع الخيانات الزوجية، بل أكد محامو العائلة أنهم كانوا يبلغونه
أثناء السجن بكل شىء، ولم يجد الزوج بعد مغادرته هذا السجن غير أن ينفصل بهدوء عن وينى..
كانت وينى قد تورطت فى أشياء كثيرة، تشوش عقلها بفعل الاضطهاد وغياب الزوج والمطاردة
والنفى وإدمان الكحول وانتهى الأمر بها - بعد ارتكاب تهمة القتل - إلى المحاكمة، وبدأت
محاكمتها فى المحكمة العليا..

فى المحكمة العليا كان هذا التحقيق: الأول، مع صديقتها، ثم عاود المحقق التحقيق مع
وينى نفسها..

ولم يكن لنا فضل فى ذلك كله غير الاستماع طويلاً إلى بعض ما دار فى هذه المحاكمة،
ومحاولة نقل بعض منها فى المحاضر.. ولم نستخدم الخيال فيها إلا قليلاً..

أولاً: محضر تحقيق مع فلانة

- وماذا أيضاً يا فلانة..؟

وراحت زوليسوا الصديقة الوفية ل وينى لسنوات طويلة، تقول، وكأنها تزيع عن صدرها
حجراً ثقيلاً..

«كان يطلق عليها لقب التمرة، المرأة التمرة لقسوتها فى التعامل مع من حولها، وخاصة
الرجال، وقد كان حراسها يخشون منها كثيراً، وخاصة حين تشرب الكحول، لقد كانت مدمنة
للكحول بشكل خطير..

وبالطبع، كان زوجها يعرف كل شىء عنها، داخل السجن أم خارجه، كانوا يبلغونه كل
شىء، حتى إننى خشيت عليه كثيراً بعد أن خرج من السجن، وقد كان عليه أن يختار، ماضيه
السياسى ومن ثم مستقبله، أو ماضى وينى ومن ثم ضياعها..

كان الاختيار بين المرأة المجهدة ورئاسة المؤتمر الوطنى الإفريقي

كانت ويني خطرًا على كل من يقترب منها.

- لقد اقتربت أنت منها كثيرًا..!

- بالطبع، اقتربت منها كثيرًا، وفعلت من أجلها الكثير..

شيزوفرينيا

لقد كانت ويني حين تتجرع الكحول تتحول إلى امرأة أخرى، كنت لا أعرفها، كانت تتحول إلى حالة تشبه الشيزوفرينيا - مرض ازدواج الشخصية - كان الكحول يطلق فيها القوى المعلقة، فتتحول إلى وحش هائج، تشوش عقله، وفي ضوء ذلك لا يرى ما يراه الإنسان الطبيعي..

كانت ويني - للإصاف - في الحالة الطبيعية لها امرأة ودودًا، طيبة، تبث في أحاديثنا كل الخواطر النبيلة لحزن عميق في النفس البشرية التي لاقت في طفولتها الكثير من الظلم، ثم عاشت ما تبقى لها من عمر - بعد سجن الزوج - في شقاء مقيم..

لقد أصبحت امرأة أخرى متوحشة..

- ما مظاهر هذا الشذوذ..؟

«الكثير، كانت، بعد الكحول تصدر أوامرها بعنف شديد، وتحث الجميع حولها على تنفيذ أوامرها مهما تكن قسوتها أو غرابتها، وفي خلال ذلك ارتكبت ويني أفعالاً قاسية كثيرة، أجبرت الكثير من الشبان للانضمام إلى تنظيمها، وعذبت الكثير ممن رفض ذلك، بل أقدمت على القتل..

ولم يكن يستطيع أحد ممن حولها أن يعصى لها أمراً، كان حراسها يخشونها، فيندفعون إلى تنفيذ أوامرها..

وفي الغالب كانت تستيقظ من هذه الحالة..

- هل تعاني من هذه الحالة بعد أن تستيقظ وبصورة أخرى، هل كان استيقاظها يستمر وقتًا طويلاً؟

- «لا، إنها تستيقظ فجأة، كما أغرقت في السكر فجأة، ثم تتحول إلى إنسان آخر، وديع طيب، تروح تتحدث في ود إلى حراسها، وتبدي العجب مما اقترفته، وتسال ببراءة: لماذا فعلتم ذلك؟

وكانت تغرق بعد ذلك في حالة من الندم الشديد مما يجعلنا نشفق عليها، كانت صديقتي مريضة، هكذا كنت أحدث نفسي وأصمت..

وتمشى في جنازته

الأكثر من ذلك غرابة، أنها بعد أن تقتل هذا الرجل أو ذاك، تعود إلى رشدها، فتذهب لتقدم التعازي، وتشارك في الجنازة..

إنها تقتل القتل وتمشى فى جنازته..

- هل تذكرين واقعة محددة؟

«ليس أقسى من الواقعة الأخيرة..»

كانت وبنى تجيء إلى منزلها بمن تريد التخلص منه ، وقد كان آخر هؤلاء أربعة من الشبان التى وضعتهم فى ساحة المنزل فى (سوتيو).. كانت وبنى قد أغرقت فى تناول الكحول ، وبسرعة راحت تلقى أوامرها ، وبعد محاكمة صورية لم تستغرق دقائق ، أمرت بالتعذيب المستمر.. كانت التهمة لأنهم كانوا قد تورطوا فى عملية تجسس لصالح النظام العنصرى ، وكانت تشكو فى الفترة الأخيرة أن كثيراً من العناصر المؤيدة لها هى عيون للنظام العنصرى ضدها.. وقد استمر التعذيب حتى الموت..

- لقد كنت صديقة حميمة ل وبنى.. ما سر هذا الانقلاب المفاجئ ضدها؟

«لقد تحملت الكثير من أجل وبنى ، غير أن الأمر زاد عن حده كثيراً ، لقد عشت معها الكثير من محاولات الاغتيالات ، والتى لم تتوقف لربيع قرن من الزمان ، بل وصل الأمر بها أنها حاولت القضاء على قادة المؤتمر الوطنى الإفريقى نفسه».

الزوج المسكين

- لا تحاولى أن تخدعينا ، لقد كنت شريكة لها..

لماذا تراجعى الآن فقط ؟

«لأننى - ببساطة - أردت حماية الزوج المسكين منها ، لقد عرف مانديلا السجن الطويل ، وخرج من العتمة المستمرة ليجد زوجته وقد أحاطتها علامات اتهام كثيرة ، وتساؤلات شتى..

كنت أعرف عنها ذلك وأشفق على الزوج المسكين»

- وهل هى آلات التعذيب والقتل فقط ؟

- والخيانة الزوجية أيضاً ، وبوضوح..

لقد عرفت الكثيرين من عشاق وبنى ، وخاصة بعد فترة النفى التى استمرت فيه قرابة تسع سنوات ، لقد خرج الزوج من السجن الصغير ليجد نفسه - إزاء زوجته - فى سجن كبير.. لقد عرفت العشاق جميعهم ، حتى بعد خروج وبنى من السجن ، وبعد خروج مانديلا من السجن لم تتوقف عن عشاقها.

كان مانديلا قد رحل فى مهمة إلى خارج البلاد عقب خروجه من السجن ، وحين اتصل بزوجه فى جنوب إفريقيا لم يجدها ، أخبروه بأنها سافرت إلى أمريكا ، وحين اتصل بها هناك ، أخبروه فى الفندق : إنها فى حجرتها الخاصة ، اتصل بها فى حجرتها الخاصة جاءه صوت رجالى غليظ من بعيد :

- ماذا تريد؟

حاولت قتلى أنا

- وماذا عن بقية الاتهامات؟

«وأوافق عليها، فهي لم تتوقف قط عن قتل الكثيرين، قتلت صحافيين وأطباء وسياسيين، لم يستطع أحد مراجعتها، ولم تستطع هي كبح جماح رغباتها العديدة كنت أقف إلى جانب ويني، نعم، لأنها صديقة، غير إنني اكتشفت، فجأة، عكس ذلك، فحين يتسع الأمر لكل هذه الجرائم لا أستطيع الكتمان، لقد انتهى بها الأمر إلى أنها حاولت قتلى أنا.. سيدى المحقق، يكفى اليوم أربع ساعات تحقيق...»
(صورة طبق الأصل)

ثانياً: محضر تحقيق مع ويني

- والآن يا سيدة ويني، الآن ننتظر الإجابة عن كل هذه الاتهامات؟

«اتهامات (بدت عينا ويني زائغة، وفي حالة من الضياع الكامل، تماسكت، عاودت الحديث على مهل..) سوف أتحدث عن شيء آخر، ربما وجدت فيه إجابات كثيرة..
لقد قبض على زوجي سبعة وعشرين عاماً عشت خلالها بمفردي، عرفت سنوات قاتمة، لم يتردد فيه النظام العنصرى عن اتباع شتى الطرق لمضايقتي: التجسس، المراقبة، فتح الرسائل، الاعتقال، السجن..»

لقد بلغ الأمر أننى فى إحدى المرات، حين كنت أخلع ملابسى، أن فوجئت برجل، يتسلل بعينيه على جسدى، كان متخفياً خلف ستارة فى نفس الحجرة، لقد كان أحد الجواسيس، فى غرفة نومى..»

لقد كان زوجى فى السجن هناك (فى جوهانسبرج)، وكنت أنا فى سجن آخر هنا، لقد نقيت فى إحدى المرات إلى براندتورت.. هل تعلمون الفترة القاسية التى قضيتها هناك وحيدة حزينة تعسة، تسع سنوات، هل تصدقون أيها السادة، وتتصورون وطأة ذلك على امرأة بعيدة ووحيدة..»

لقد قضيت مع زوجى خمس سنوات، وفى السجن والنفى أكثر من عشرين عاماً،

تزوجت القضية

- وهل كانت السنوات التى قضيتها مع زوجك هادئة، أو أن طبيعتك ماجنة يا سيدة ويني..؟

. - لم تكن كذلك، كان ميلى إلى نيلسون، منذ البداية، ميلا مشتركا، كان كل منا له همومه الوطنية التي كانت تمثل لدى كل منا أشياء أخرى تقوم وننام بها، وهل أنكر أن غرامى به، وزواجى به منذ البداية، كان لعلاقتى الحميمة بالقضية الوطنية..

كان أبى مدرسا للتاريخ، ومع ذلك كان يضع الكتب جانبا دائما ويصيح فيمن حوله: (البيض ليسوا الأسياد الشرعيين فى بلادنا، غزوها وسرقوها من أجدادنا).

وأذكر أن هذا الأب حين علم بنيتى فى الزواج من مانديلا قال:

(تذكرى أنك لم تتزوجى نيلسون، وإنما القضية)

وحتى بعد أن تزوجنا كان الوطن دائما معنا..

من يستطيع أن يزعم أن حياة المرأة - أية امرأة - يمكن أن تظل دائما منتظرا ونضالا ونفيا وتمردا وسجنا كما عرفت أنا..

لقد تعذبت كثيرا فى غيبتة، وتعذبت كثيرا معه، لماذا.. لأن الخصم فى الحاليتين كان النظام البغيض، الخصم كان الرجل الأبيض، والضحية دائما كانت الرجل الأسود والمرأة السوداء..

كان الرجل الأبيض، الغربى، أيها السادة، يسم حياتنا..

- أنت تمزجين بين العام والذاتى. لماذا؟

لم أعد أستطع أن أفعل العكس، لقد فوجئت بأن زوجى يقضى العقوبة مدى الحياة فى (كيب تاون)، هل تتصورون وطأة ذلك على امرأة فى ربيع الشباب.. هل أذكركم للمرة الألف..

لم أعرف، منذ قبض عليه، يوما واحدا بدون تحرش بى، الإهانة، الاتهامات المتكررة، المراقبة المستمرة، القبض على من آن إلى آخر، الاستجواب الذى لا ينتهى، والنفى أيضا..

لقد قضيت شبابى كله فى السجن والنفى والاضطهاد، الزوج فى سجن، وأنا فى سجن، والقضية فى سجن، والشعب فى سجن..

هل تتصورون ذلك يا سادتى..؟

- وما علاقة ذلك كله بسلوكك المشين؟

«عن أى سلوك تتحدثون، امرأة وحيدة فى برد طويل لا ينتهى، وغربة لا أعرف مداها، لم أعد أنا وبنى، لم أعد أعرف عنم تتحدثون..

من أصبح، حسن، لقد ماتت نوفرانو - الحاملة كما كانوا يطلقون على فى القرية - لم أكن قد جاوزت الثلاثين حين وقف العالم كله ضدى..

هل تعرفون يا سادتى أنه بمجرد القبض على نيلسون، تعرضت لمضايقات وحشية؟

هل عرفت أن البوليس كان يحيط بمنزلى دائما؟

هل تعرفون أن منزلي تحول في إحدى المرات إلى مركز شرطة؟
كنت أصحو فأجد البوليس الأبيض، ولم يكن يختفى حين أغمض عيني، كنت أراه أيضاً،
سواء في أحلامي أم في كوابيسي..

دعوني أصارحكم، كنت أعرف أن أقرب المخلصين لي كانوا عيوناً عليّ لصالح نظامكم الأبيض
الغريبى العنصرى، وكنت أعرف الكثير منهم بالاسم، إن صديقتى - فلانة - وأكاد أقسم لك،
هى من مخبرى نظامكم.. كنت أعرف ذلك منذ زمن مبكر..

والآن أعرف، ما شكل الدراما التى توشكون أن تضعونى فيها، إنها دراما مأساوية دون شك..
أعرف.. السيد هناك يتحدث عن الديموقراطية، أيها السادة لا تحدثونى عن ديموقراطيتكم..
إن الديموقراطية عندكم غير التى تريدون أن تمنحوها إيانا.. ديموقراطية نظامكم الجديد،
عالمكم الجديد، نعرفها جيداً، نحن النساء السود، وأبناء العالم الثالث..

خذوا ديموقراطيتكم ودعونا كما نريد..

.....
.....
.....

(صورة طبق الأصل)

المراجع

- على الرغم من دور ويني الكبير في حياة زوجها أو بعيدا عنه حين كان في السجن، فإننا نستطيع العثور على عديد من المصادر تتحدث قبل كل شيء عن نبوغها، وهو ما يمكن الإشارة إليه هنا، لابلنص السابق ولا بالمحاولة المهمة هنا التي أشرنا إليها بشكل غير مباشر بالمتن، إننا نلاحظ أن أى مرجع أو مصدر يركز فى المقام الأول على علاقاتها بغيرها بشكل غريب مغرق فى الرومانسية، ومن هنا، لن نعود إلى الحياة المضربة خاصة التي عانى منها زوجها بشكل مريب ..

- وعلى هذا النحو، تطالعنا المقالات أو الإشارات الرقمية بحياتها الخاصة بشكل مباشر وهو مافضنا أن نقوم به فى المتن، ومن هنا، نستطيع أن نشير إلى هذه الحياة بسيرة غيرية وترك المتن وقد تفرقت مصادره إلى عديد من المقالات القليلة، والإشارات التي لم تمنحنا إطارا عاما «للشخصية» أو النمطية فى حياتها، وهذا يمثل هذه الفقرة التي تزخر بها المراجع والمصادر الكتابية منها أو الرقمية..

وهو ما نشير إليه هنا، وتترك التفاصيل المهمة للمتن، مع إشارة لبعض هذه المصادر الرقمية بوجه خاص، تقرأ أن، إنها حصلت - أى ويني مانديلا - مطلقة الزعيم نيلسون مانديلا وأيقونة مناهضة نظام الفصل العنصرى على شهادة جامعية فى العلاقات الدولية بعد ٣٨ عاما من الدراسة. وتسلمت ويني الملقبة من جانب كثيرين فى جنوب إفريقيا باسم أم الوطن شهادة تخرجها فى احتفال بجامعة ويتوتوتزاند التي بدأت الدراسة فيها فى عام ١٩٦٧. وقالت ويني البالغة من العمر ٧٠ عاما فى تصريحات نقلتها صحيفة سويتان: أردت أن أعمل أشياء تقدرن على فعلها.. لكن فى مرحلة متأخرة من حياتى.. بعد التحرر. وأضافت أردت أيضا أن أثبت لأبنائى وأحفادى أنني أحب الاستذكار أيضا.

والمعروف أنه سبق أن أدينت ويني عام ١٩٩١ بخطط ستومبي سيبى وهو ناشط سياسى لم يتجاوز عمره ١٤ عاما عشر على جنته فيما بعد قرب منزلها. وبرئت من اتهامات بالقتل العمد والتزوير والسرقه.

كانت ويني قد لقيت بألم البلاد لكفاحها ضد حكم الأقلية العنصرية البيضاء التي تعرضت خلالها لتحرشات من جانب الدولة. ولكن حياتها مع الزوج المناضل لم تكن بشكل نموذجى.. وهنا يمكن العود إلى العديد من المصادر الرقمية ومنها :

- <http://www.alyaum.com>

- <http://rds.yahoo.com>

فى موضع آخر نجد هذه السيرة التقريرية، التي نحب أن نسجل بعضها هنا، لأهميتها فى

الإشارة إلى الحياة السياسية حولها ثم مع زوجها، نقرأ في عديد من المصادر مثل هذا التقييم:
قاض على منح الرئيس الجنوب إفريقي حق الطلاق عام ١٩٩٦، بسبب الادعاء الذي أشار إلى
أن زوجته «ويني» كانت غير مخلصه. يذكر أنهما تزوجا عام ١٩٥٨، أثناء المحاكمة التي دامت
خمسة أعوام بتهمة الخيانة، والتي كان مانديلا متهماً فيها. وأثناء جلسات الاستماع في قضية
الطلاق، ذكر مانديلا بأن زواجه انهار مباشرة بعد أن تم إطلاق سراحه من السجن عام ١٩٩٠.
- <http://arabic.cnn.com/2007/entertainment>